الفصل الرابع
الروح والنفس عند السادة الصوفية

أولاً: الروح عند السادة الصوفية:

يقول الأستاذ القشيرى فى رسالته[1]: الأرواح مختلف فيها عند أهل السنة، فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة فى هذه القوالب، ثم قال: الإنسان هو الروح والجسد؛ لأن الله سبحانه وتعالى سخر هذه الجملة بعضها لبعض.. والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة.

أما أغلبية الصوفية فيرون وجود مبدأين متناقصين أو متنافرين هما: النفس والروح، وتعتبر الثانية أعظم من الأولى لنزوعها إلى ما هو إلهى.

وصف الإمام الغزالى [2] الروح فقال:وهو يطلق أيضًا فيما يتعلق بجنس غرضنا المعنيين: (أحدهما) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه فى البدن، وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا يستنير به، والحياة مثلها النور الحاصل فى الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركة، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا بها هذا المعنى: وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلًا. (المعنى الثانى): هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ وهو أمر عجيب ربانى تعجز كل العقول والأفهام عن درك حقيقته.

---

(١) الرسالة ص٤٥.

(٢) إحياء علوم الدين، جزء٢، ص٣، ٤.

وقال الإمام الغزالى فى كتابه ((مشكاة الأنوار)) [1] عن ((مراتب الأرواح البشرية النورانية)) فيتفنن فى تقسيمها وترتيبها:

الأول: الروح الحساس، وهو الذى يتلقى ما تورده الحواس الخمس، وكأنه أصل الروح الحيوانى وأوله، إذ به يصير الحيوان حيوانًا، وهو موجود للصبى الرضيع.

الثانى: الروح الخيالى، وهو الذى يستثبت ما أورده الحواس، ويحفظه مخزونًا عنده ليعرضه على الروح العقلى الذى فوقه عند الحاجة إليه، وهذا لا يوجد للصبى الرضيع فى بداية نشوته، ولذلك يولع بالشىء ليأخذه، فإذا غاب عنه ينساه ولا تنازعه نفسه إليه، إلى أن يكبر قليلًا فيصير بحيث إذا غيب عنه بكى، وطلب ذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله.

وهذا قد يوجد لبعض الحيوانات دون بعض ولا يوجد للفراش المتهافت على النار؛ لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النهار فيظن أن السراج كرة مفتوحة إلى موضع الضياء، فيلقى نفسه عليه فيتأذى به، لكنه إذا جاوزه وحصل فى الظلمة عاوده مرة بعد مرة، ولو كان له الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم، لما عاوده بعد أن تضرر مرة بعد مرة به، فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعيد هرب.

الثالث: الروح العقلى الذى به تدرك المعانى الخارجة عن الحس، وهو الجوهر الإنسى الخاص، ولا يوجد لا للبهائم ولا للصبيان، ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين.

الرابع: روح الفكر، وهو الذى يأخذ العلوم العقلية المحضة، فيوقع بينها تأليفات وازدواجات، ويستنتج منها معارف شريفة، ثم إذا استفاد نتيجتين مثلًا، ألف بينهما مرة أخرى، واستفاد نتيجة أخرى، ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية.

الخامس: الروح القدسى النبوى الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة، وجملة من معارف ملكوت السماوات والأرض، بل من المعارف الربانية التى يقصر دونها الروح العقلى والفكرى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢).

وقال الإمام المناوى فى توقيفه[2]: الرَّوح بالفتح، ما تلتذ به النفس، وبالضم، جعل اسما

---

(١) مشكاة الأنوار، ص٤٤ وما بعدها، طبعة ١٩٦٨.

(٢) المناوى، التوقيف على مهمات التعاريف، بتحقيقنا، ص ١٨٢، ١٨٣.

للنفس لكون النفس بعض الروح، فهو كتسمية النوع باسم الجنس نحو تسمية الإنسان، وجعل اسما للجزء الذى به تحصل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع، واستدفاع المضار، وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (الإسراء: ٨٥) ذكره الراغب.

وقال ابن الكمال: الروح الإنسانى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيوان نازل من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهه، وتلك الروح قد تكون مجردة، وقد تكون منطبقة فى البدن.

ثانيًا: النفس عند السادة الصوفية:

قال الإمام الغزالى فى إحيائه[1]: النفس، وهو أيضًا مشترك بين معان، ويتعلق بغرضنا منه معنيان: (أحدهما): أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: ((أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك))[2].

(المعنى الثانى): هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة، وهى نفس الإنسان ذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها: فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله تعالى فى مثلها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ (الفجر: ٢٨).

والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مبعدة عن الله، وهى من حزب الشيطان، وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه. قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ (القيامة: ٢) وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣).

وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء: هى النفس بالمعنى الأول، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثانى محمودة؛ لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص٤.

(٢) الحديث أخرجه البيهقى فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس.

وقال الإمام القاشانى عن النفس: إن للنفس أحوالًا غير أحوال الروح، وهذه الأحوال تنقسم إلى ثلاثة أنواع هى:

النفس الأمارة[1]:

وهى التى تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهى مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) فهى التى تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر باللذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهى مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة[2].

النفس اللوامة:

وهى التى تنورت بنور القلب فتيقظت وبدأت بإصلاح حالها، وبها أقسم سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ (القيامة: ٢). فهى التى تنورت بنور القلب قدر ما تنبعث به عن سنة الغفلة كلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية نفتها بلوم، وتنوب عنها.

النفس المطمئنة:

وهى التى تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة، حتى خاطبها ربها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ (الفجر: ٢٨). فهى التى تنورت بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة، كذا ذكره ابن الكمال[3].

وقال غيره: إذا سكنت النفس تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت مطمئنة، وإذا لم يبن سكونها لكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية أو معترضة عليها سميت لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على تقصيرها فى عبادة مولاها، وإن تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت أمارة، وهناك أيضًا:

النفس النباتى:

كما أول الجسم الطبيعى من جهة ما يتولد ويزيد ويتغذى[4].

---

(١) القاشانى، اصطلاحات، ص٩٥ – ٩٦.

(٢) التعريفات، ص٢٦٣، والقاشانى، اصطلاحات الصوفية ص٩٥.

(٣) وفى التعريفات ص٢٦٣، والقاشانى، اصطلاحات الصوفية ص٩٦.

(٤) التعريفات، ص٢٩٣.

النفس الناطقة:

هى الجواهر المجردة عن المادة فى ذواتها مقارنة فى أفعالها، وكذا النفوق الفلكية.

النفس القدسية:

التى لها ملكة استحضار جميع ما يمكن للنوع أو قريبًا من ذلك على وجه يقينى، وهذا نهاية الحدس[١].

النفس الرحمانى:

الوجود العام المنبسط على الأعيان عينًا، وعلى الهَيولَى الحاملة لصور الموجودات، والأول مرتب على الثانى سمى به تشبيهًا بنفس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواء ساذجًا، ويعبر عنه بالطبيعة عند الحكماء[٢].

وعن النفس قال الإمام المناوى[٣]:

النفس: الجوهر البخارى اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم[٤].

الروح الحيوانية: فهى جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوءه من ظاهر البدن وباطنه.

وأما وقت النوم فينقطع ضوءه عن ظاهره دون باطنه، فثبت أن النوم والموت من جنس واحد لأن الموت انقطاع كلى، والنوم انقطاع خاص، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب: إن غلب ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة، وإن انقطع ضوؤها عن ظاهره فقط فالنوم، أو بالكلية فالموت[٥].

وقال القاضى أبو الحسن عبد الجبار الأسد أبادى[٦] (٤١٥هـ) فى كتابه ((المغنى فى أبواب التوحيد والعدل)). وكان على رأس المعتزلة فى الأصول، وذلك فى معرض حديثه عن الكلام على من قال: ((إن الحى هو روح فى القلب))[٧].

---

(١) التعريفات، ص٢٦٤.

(٢) التعريفات ص٢٦٤، والقاشانى، اصطلاحات الصوفية ص٩٤ – ٩٥.

(٣) التوقيف، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٤) أى أرسطو.

(٥) التعريفات، ص٢٦٢ والقاشانى اصطلاحات الصوفية ص٩٥.

(٦) انظر ترجمته فى ابن العماد، الشفرات٣/ ٢٠٣، واليافعى، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٩، والزركلى، الأعلام ٤/ ٤٧، وكحلة، معجم المؤلفين، ٥/ ٧٨.

(٧) الجزء ١١، الصفحات ٣٣١ – ٤٤٣.